

دلائل الإعجاز

المعنى نفسه . فإذا سمعْتَهُم يقولون : إنَّ من شأنِ هذه الأجناسِ أن تُكسِبَ المعاني نُبلاً وفضلاً وتوجبَ لها شرفاً وأن تفخمَها في نفوسِ السَّامعين وترفعَ أقدارَها عند المُخاطَبينَ فإنَّهم لا يُريدون الشَّجاعةَ والقِـرَى وأشباهَ ذلك من معاني الكلام المُفردة وإنَّما يَعْنون إثباتَ معاني هذه الكلامِ لمَن° تثبُتُ له ويُخَبِّرُ بها عنه .

هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعلَه على دُكرٍ منهُ أبداً وأن يعلمَ أن° ليسَ لنا إذا نحنُ تكلَّـمنا في البلاغةِ والفصاحةِ مع معاني الكلامِ المُفردة شُغلٌ ولا هيَ منْـا بسبيل وإنَّـما نَعـمـدُ إلى الأحكام التي تحدُث بالتأليف والتَّركيب . وإذا قد عرفتَ مكانَ هذا المزيَّةِ والمُبالغة التي لا تزالُ تسمعُ بها وأنها في الإثباتِ دونَ المثبتِ فإنَّ لها في كلِّ واحدٍ من هذه الأجناسِ سبباً وعِلَّةً . أما الكنايةُ فإنَّ السَّببَ في أن° كانَ للإثباتِ بها مزيَّةٌ لا تكونُ للتَّـصريح أن° كُلُّ عاقلٍ يعلمُ - إذا رجعَ إلى نفسه - أنَّ إثباتَ الصِّفةِ بإثباتِ دَليلِها وإيجابَها بما هو شاهدٌ في وجودِها آكدٌ وأبلغُ في الدِّعوى من أن تجيءَ إليها فتُثبتَها سادجاً غُفْلاً وذلك أنكَ لا تدَّعي شاهدَ الصِّفةِ ودليلَها إلاَّ والأمرُ ظاهرٌ معروفٌ وبحيثُ لا يُشكُّ فيه ولا يُطَنُّ بالمخبر التجوُّزُ والغلطُ . وأما الاستعارةُ فسببُ ما تَرى لها من المزيَّةِ والفخامةِ أنك إذا قلتَ : " رأيتُ أسداً " كنتَ قد تلطَّفتَ لما أردتَ إثباتَه له من فَـرطِ الشَّجاعةِ حتى جعلتَها كالشَّيْءِ الذي يجبُ له الثُّبوتُ والحُـمُولُ وكالآمرِ الذي نُصِبَ له دليلٌ يقطعُ بوجوده . وذلك أنَّـه إذا كان أسداً فواجبٌ أن تكونَ له تلكَ الشَّجاعةُ العظيمةُ وكالمُستحيلِ أو الممتنعِ أن° يَعْرِى عنها . وإذا صرَّحتَ بالتَّشبيهِ فقلتَ : " رأيتُ رجلاً كالأسد " كنتَ قد أثبتَّـها إثباتَ الشَّيْءِ يترجَّحُ بين أن يكونَ وبين أن لا يكونَ ولم يكنْ من حديثِ الوجوبِ في شيءٍ .

وحكمُ التَّمثيلِ حكمُ الاستعارةِ سواءٌ فإنكَ إذا قلتَ : أراك تُقدِّـمُ رجلاً وتؤخِّرُ أخرى